

مدارس تأويل الشريعة الإسلامية بتراب البيضان (ما بين القرنين 11هـ و13هـ / 17م و19م)

Schools of interpretation of Islamic law in the soil of Beidan
(The 11th and 13th centuries AH / 17th and 19th centuries AD)

بيوط داداي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، فاس

daday267@gmail.com

Abstract

During the period between the 13 AH / 17 AD and the 15 AH / 19 AD centuries, the Al-Baydan region witnessed the emergence of many schools of thought and jurisprudence that were interested in studying the Islamic legislative heritage. It affected the soil of Beidan, and some hard-working jurists appeared in it, who provided justifications for their methodological and intellectual choices. It took the form of intellectual currents and trends, each of which adopted a religious discourse and an educational and educational trend in line with the general trend of its approach; Where some of them were concerned with the external sciences, especially the jurisprudence sciences, while others were concerned with the esoteric sciences and diving into the meanings of the soul, such as Sufism and theology, while the last section remained true to the approach of imitation and the call to return to the first sources of Islam and the method of the righteous predecessors in knowing the provisions of Sharia and working with them.

The trends of interpretation of Sharia at the level of Soil of Beidan society are divided into four schools: The jurisprudence school; the speech school; The Salafist School; The Sufi School.

Keywords: Al-Baydan region, schools of thought and jurisprudence in soil of Beidan, intellectual currents and trends, esoteric sciences, Sufism and theology.

Résumé

Au cours de la période comprise entre le 13 AH / 17 AH et le 15 AH / 19 AD siècles, la région d'Al-Baydan a vu l'émergence de nombreuses écoles de pensée et de jurisprudence qui se sont préoccupées de l'étude du patrimoine législatif islamique, Son impact a atteint toute la région du Sahara Et y figurèrent quelques juristes diligents, qui justifièrent leurs choix méthodologiques et intellectuels. Elle se manifesta par des courants et tendances intellectuelles, adoptant chacune un discours religieux et une orientation pédagogique et éducatif conformes à la tendance générale. tendance de son approche; Où certains d'entre eux concernaient les sciences externes, en particulier les sciences de jurisprudence, tandis que d'autres concernaient les sciences ésotériques et plongeait dans les significations de l'âme, comme le soufisme et la théologie, tandis que la dernière section restait fidèle à l'approche de l'imitation et l'appel à revenir aux premières sources de l'islam et à la méthode des prédécesseurs justes pour connaître les dispositions de la charia et travailler avec elles.

Les courants d'interprétation de la charia au niveau de la société ouest saharienne se répartissent en quatre écoles : Ecole de jurisprudence ; Ecole de la parole ; Ecole salafiste ; Ecole soufie

Mots clés : La région d'Al-Baydan, écoles de pensée et de jurisprudence dans la région du Sahara, sciences ésotériques, soufisme et la théologie.

ملخص

عرفت منطقة البيضان خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 13هـ / 17م و 15هـ / 19م ظهور العديد من المدارس الفكرية والفقهية التي اهتمت بدراسة التراث التشريعي الإسلامي، وقد اختلفت على مستوى المقاربات والمناهج في تفسير الشريعة، وتأويل أحكامها، وطريقة قراءتها لأصول التشريع الإسلامي وتفسير نصوصه، فعم تأثيرها كل منطقة الصحراء، وظهر بها بعض الفقهاء المجتهدين الذين قدموا تبريرات حول اختياراتهم المنهجية والفكرية، وقد اتخذت شكل تيارات واتجاهات فكرية تبنت كل منها خطابا دينيا واتجاهها تربويا وتعليميا تماشى مع الاتجاه العام لمنهجها، حيث اهتم بعضها بعلم الظاهر خاصة العلوم الفقهية، واختص بعضها الآخر بالعلم الباطن والغوص في معاني الروح كالتصوف وعلم الكلام، بينما ظل القسم الأخير وفيما منهج التقليد والدعوة للعودة إلى منابع الإسلام الأولى وأسلوب السلف الصالح في معرفة أحكام الشريعة والعمل بها.

وتفرعت اتجاهات تأويل الشريعة على مستوى مجتمع غرب الصحراء إلى أربع مدارس هي: المدرسة الفقهية، المدرسة الكلامية، المدرسة السلفية، المدرسة الصوفية.

الكلمات المفتاح: منطقة البيضان، المدارس الفكرية والفقهية في منطقة الصحراء، التصوف وعلم الكلام، المدرسة الصوفية في أرض البيضان.

مقدمة

عرفت منطقة البيضان بروز مدارس مختلفة على مستوى المقاربات والمناهج في تفسير الشريعة، وتأويل أحكامها، قدمت كل منها تبريرات حول اختياراتها المنهجية وطريقة قراءتها لأصول التشريع الإسلامي وتأويل نصوصه، فعم تأثيرها منطقة الصحراء وظهر بها بعض الفقهاء المجتهدين، وقد عرف المجال الصحراوي ظهور هاته المدارس على الأقل منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين بسبب انفتاح المنطقة على تحولات العالم العربي والإسلامي وازدهار رحلات الحج، فاتخذت شكل تيارات واتجاهات فكرية تبنى كل منها خطابا دينيا واتجاها تربويا وتعليميا تماشى مع الخط العام لمنهجها، حيث اهتم بعضها بعلم الظاهر خاصة العلوم الفقهية و قد اختص بعضها الآخر بالعلم الباطني والغوص في معاني الروح كالتصوف وعلم الكلام، بينما ظل القسم الأخير وفيما لمنهج التقليد والدعوة للعودة إلى منابع الإسلام الأولى وأسلوب السلف الصالح في معرفة أحكام الشريعة والعمل بها. وتفرعت اتجاهات تأويل الشريعة على مستوى مجتمع غرب الصحراء عموما إلى أربع مدارس هي:

- المدرسة الفقهية،
- المدرسة الكلامية،
- المدرسة السلفية،
- المدرسة الصوفية.

1. المدرسة الفقهية

شكلت المدرسة الفقهية إحدى أهم المدارس الفكرية والدينية في أرض البيضان¹، وأقواها انتشارا في أوساط المجتمع استنادا إلى تاريخ مذهبي عريق تمتد جذوره من زمن الدولة

¹ البيضان لفض استخدمه أول مرة الشيخ بابا بن الشيخ سيديا للدلالة على بلاد شنقيط، وأطلقه المستطعون الاستعماريون ومنهم أول حاكم فرنسي لبلاد شنقيط كابولاني غزافيي للدلالة على الرقعة الجغرافية الممتدة من خاي وتمبوكتو شرقا والمحيط الأطلسي غربا ونهر السنغال جنوبا وجنوب المغرب والجزائر شمالا. ويعتمد المختار بن حامد المعطيات البشرية الاجتماعية في تحديد البعد الجغرافي للبلاد الشنقيطية منطلقا من مفهوم بلاد البيضان متحدثا عن اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ فيضيف لمنطقة شنقيط وقبائلها المناطق التالية: - في الشمال منطقة الصحراء التي كانت خاصة للاستعمار الإسباني ومنطقة تقع في جنوب غرب الجزائر حيث مضارب قبائل الرقيبات وتجانكت.

المرابطية إلى اليوم، وقد عرفت بالصلابة في التشبث بمذهب مالك، وبند كل ما علق به من أشعرية وغيرها من عوالم علم الكلام وخلاصات الفلسفة والفكر الإسلامي، وتبنت أولوية النقل على العقل، وانقسمت إلى ثلاثة تيارات هي:

- تيار يأخذ بالفروع

- تيار يأخذ بالأصول

- تيار يجمع بين الفروع والأصول.

1.1. تيار أول أخذ بالفروع

اعتمد هذا التيار على منهجية استخلاص الأحكام والقياس عليها من الكتب التي تركها مشايخ المالكية ومجتهدوها الذين قدموا فيها آراءهم الفقهية عن كل المسائل استنادا إلى اجتهادات الإمام مالك وآرائه الفقهية، وأضافوا لها بعضا من تقديراتهم واجتهاداتهم التي لا تحيد في الغالب عن جادة المذهب، ومن تلك الكتب مختصر خليل¹، والرسالة لأبي زيد القيرواني²، وكان من أهم أنصار هذا الاتجاه الإمام ناصر الدين³، الذي اعتمد المذهب المالكي في نشر دعوته سيرا على نهج أسلافه المرابطين، ومن سار على طريقهم من علماء المغرب

- في الشرق: منطقة غرب شمال جمهورية مالي بين مضارب قبائل كتنه ولبرايش والعناصر العربية الأخرى. (النحوي، الخليل: بلاد شقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني، من خلال الجامعات البدوية – المحاضر – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1978، ص.ص 24-25) وعموما فإن مدلول الكلمة لدى العدد الأكبر من الباحثين المتخصصين في هذا الموضوع يتجاوز الحدود العرقية والسياسية إلى دلالاته على الحيز الجغرافي الذي يتكلم باللغة الحسانية وله وحدة اجتماعية وثقافية.

¹ خليل بن إسحاق بن موسى ضياء الدين الجندي المالكي المصري يلقيه العلماء بأبو المودة، تعد شروحه المالكية أهم مصدر لفقه الفروع حيث أقبل عليه العلماء وتناولوه بالشرح والتعليق حتى وضع له أكثر من مائة تعليق ما بين شرح وحاشية توفي 776هـ/1374م ودفن بالقرافة الكبرى قرب شيخه الشيخ المنوفي (المالكي، خليل بن إسحاق: مختصر خليل في فقه إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، صححه وعلق عليه الشيخ طاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، ط 2، بيروت لبنان 2004، ص.ص 05-06).

² عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني نسبة إلى القيروان سنة 310هـ/923م وقد لقب بمالك الصغير لأنه كان من أهم شراح أقوال مالك وجامع مذهبه وكثير الرواية عنه، توفي في 386هـ/996م. (الدباغ: معالم الإيمان، تحقيق محمد ماضور، ج.3، مكتبة العتيقة، بنونس / مكتبة الخانجي بمصر دت، ص. 140)

³ مؤسس حركة إصلاحية دينية اجتماعية في الجنوب الغربي من بلاد شقيط (موريتانيا الحالية) واجه الأطماع الفرنسية المتربصة ببلاده انطلاقا من نهر السنغال، كان يطمح لإنشاء دولة إسلامية على النهج المرابطي، لم يكتب لحركته الاستمرار بفعل حرب شريبه مع قبائل حسان المغربية التي انتهت بهزيمة الزوايا، وقد قتل صاحبها يوم ترتلاس إحدى وقائع تلك الحرب سنة 1674م الموافق 1085هـ، وانتهت الحركة رسميا يوم تنيفظاظ سنة 1677م الموافق ل 1088هـ (النحوي، الخليل: بلاد شقيط المنارة والرباط، المرجع السابق، ص.ص 304-305-306-307)

الإسلامي، متبعين ومقلدين، ومتشددين اتجاه كل من يريد دخول مضمار التأويل من الكتاب والسنة ممن ليس بمجتهد ترجيح، وفي هذا الإطار قال أحد رواد هذه المدرسة، وهو سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي صاحب مراقي السعود¹:

من لم يكن مجتهدا فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر

وقال القاضي محمد بن محمد فال متماشيا مع نفس النهج²:

وأهل مغرب علمهم يمنع غير الإمام مالك أن يتبعوا

لفقد غيره وكل خارج عن نهجه فهو من الخوارج

وقوله أيضا: «بيد أني لا أحتج إلا بنص في مذهب مالك فليعانقه من كان أهلا لذلك»³.

وقد ترتب عن هذا الوضع أن مُنع الكثير من الفقهاء من النظر في كثير من النوازل التي عاصروها بحجة أن الإفتاء خاص بالمجتهدين، وأن هؤلاء مفقودون في ذلك العصر، كما أن المقلدين بمفهوم الفقهاء القدماء⁴ مفقودون أيضا، ولا يوجد حسب رأيهم إلا مقلد جاهل. وقد استغرب الشيخ محمد المامي من نزوعهم هذا، وأكد أن فقهاء هذا الاتجاه يعيشون تناقضا كبيرا بين موقفهم النظري المتشدد من الاجتهاد وموقفهم التطبيقي الاجتماعي المناقض له، فقال: «لا تمر بهم سبعة أيام إلا اجتهدوا في نازلة، ويردون دعوى من التمس لهم السلامة باطلة، ومن حيلة القبول عاطلة»⁵. وأضاف أيضا متسائلا: «كيف لا يجتهدون وأحكام البادية غير منصوص عليها؟ فلا بد من الاجتهاد وإلا عطلت الأحكام إن لم ينظر في النوازل أمثل مقلد مع فقد المجتهدين الثلاثة»⁶.

¹ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمدن البيطاني خلال القرنين 18 و 19، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2015، ص. 152.

² أحمدو ولد حمين، التجديد أو النظر الفقهي عند علماء الصحراء، ضمن ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية أيام 26 و 27 ذو الحجة 1422هـ/ 11 و 12 مارس 2002م، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المعارف الجديدة، الرباط 2003، ص. 185.

³ أحمدو ولد حمين، التجديد أو النظر الفقهي عند علماء الصحراء، ضمن ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية أيام 26 و 27 ذو الحجة 1422هـ/ 11 و 12 مارس 2002م، ص. 186.

⁴ المقلد الذي يتكلم عنه المتقدمون هو مجتهد الترجيح، وهو مفقود حسب رأيهم في العصور المتأخرة.

⁵ محمد المامي بن البخاري: كتاب البادية ونصوص أخرى، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، جامعة محمد الخامس أكاد، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ص. 52.

⁶ المرجع السابق.

وقد نظم قائلا¹:

بقينا وعصر الاجتهادات قد مضى فما الرأي إن لم يفت فينا مقلد

وقد عوضت هاته المدرسة تشدها اتجاه الاجتهاد، بالعباية بمختصر خليل حيث تعمق مشايخها في دراسته وتحليله وبلغوا درجة النظم في ذلك، وأضحت خلاصاته مادة مدرسية للعديد من المحاضر البيطانية، ومنها محاضرة أهل محمد سالم² التي ألف شيخها شرحا شاملا على مختصر خليل في سبع مجلدات، إلى جانب شرحه للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مما يؤكد رسوخ المذهب المالكي في مجال البيطان³.

وقد أدى انتشار الفقه المالكي ذو الصبغة الفروعية إلى التقليل من دراسة الأصول، وحلت العديد من النوازل بواسطة مصادر ثانوية كقواعد الفقه وأصول المذهب، التي انتشرت أيما انتشار ودرسها العلماء البيطان، وأدت في النهاية إلى خدمة المذهب والالتزام به لكنها لم تثن البعض من الفقهاء عن المطالبة بتجاوز الفروع إلى ضرورة النهل من الأصول، والدفاع عن أولويتها في استنباط الأحكام والتوسع في الاجتهاد.

2.1. تيار يأخذ بالأصول ويدعو للاجتهاد

دعا أنصار هذا التيار إلى المطالبة بالعودة إلى أصول الشريعة الإسلامية من قرآن وسنة، وتقديمهما على كل مصادر التشريع الأخرى من الفروع والقياس، والخروج من قبضة المتون الفقهية الجاهزة التي ارتبط إنتاجها بظروف أصحابها الذين ألفوها إلى الاجتهاد انطلاقا من النص الأصلي، ومن العلماء البيطان الذين دافعوا عن أفكار هذا التوجه نجد

¹ المرجع نفسه.

² هو محمد بن محمد سالم بن محمد سعيد بن محمد بن عمر المجلسي الشنقيطي ولد سنة 1203 هـ / 1787 م، أحد شيوخ تفسير القرآن في بلاد شنقيط ألف العديد من المؤلفات منها: الريان في تفسير القرآن في سبعة مجلدات ومؤلف النهر الجاري على صحيح البخاري المكون من سبع مجلدات أيضا بالإضافة إلى كتاب لوامع الدرر في هتك أستار المختصر وهو شرح للمختصر في سبع مجلدات، توفي سنة 1302 هـ / 1884 م (ترجمة تم جمعها من مراجع متفرقة).

³ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيطاني خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص. 153.

الشيخ محمد المختار بن الأعمش¹ والشيخ بابا بن الشيخ سيدي وآخرون². وقد اعتبروا أن التشبث بكتب الفروع وشروحاتها، والابتعاد عن الأصوليين الكبارين القرآن والسنة كان أمراً طارئاً على بلاد البيضان، ولم يكن قضية متجذرة وأن حدوثها لم يسبق القرن الثاني عشر الهجري، حيث كانت دراسات الموطن والصحيحين مزدهرة قبل هذا التاريخ³.

ومن رواد هذا الاتجاه أيضاً العالم محمد يحيى اليونسي⁴ الذي قال أبياتاً يحث فيها على تجنب الأخذ من كتب الفروع والنهل من مصادر التشريع مباشرة⁵:

وليس يحتاج بقول عالم أو فعله دون دليل حاسم

فالفقوى بالفروع غير هادية بل هي بدعة طرت معادية

وللشيخ الكنتي كتاب سماه هداية الطلاب في الفقه المالكي⁶ يحث فيه طلاب العلم على النهل من القرآن الكريم وتدبره، ويقال إنه سمع ذات مرة أبياتاً لأحد دعاة الفروع، وكتاب المختصر يقول⁷:

قبضت على ديني بنص خليلي وإن لامي في ذلك كل خليلي

وإن سألوني عن دليلي وحجتي أقول لهم خليل حجتي ودليلي

¹ محمد المختار بن الأعمش بن يعقوب بن أبجة بن يحيى أحد شيوخ المحاضر ببلاد شنفيط، كان من رواد الاجتهاد من الأصول، كما لقب بشيخ النوازل لكثرة الإفتاء فيها له العديد من المؤلفات منها: رسالة في الدماء وشرح على فريدة السيوطي، ونظم مغني اللبيب في النحو ومجموعة من النوازل توفي سنة 1107 هـ/1695 م (بن البراء، يحيى، المجموعة الكبرى، المجلد 1، ط 1، ص. ص. 253-254).

² الظريف، محمد، الحركة الصوفية، وأثرها في أدب الصحراء المغربية 1800-1956، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص. 71.

³ بن أحمد، محمد محفوظ، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية الموريتانية، المكتب العربي للخدمات الثقافية، ط 1، نواكشوط، 1996/1406، ص. 111.

⁴ فقيه وعالم اجتهاد شنفيطي معاصر من رواد مدرسة الاجتهاد ألف العديد من مختصرات الكتب، توفي سنة 1354 هـ/1936 م (المجلس الأعلى للفتوى والمظالم بموريتانيا، www.fatwamadhilim.mr)

⁵ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيظاني خلال القرنين 18 و 19، المرجع سابق، ص. 153.

⁶ هذا الكتاب يضاهي مختصر خليل على مستوى قوة المتن وغزارته العلمية، يحث فيه طلاب العلم على طلب القرآن والتبحر فيه، ويقال إنه مكث في تحريره عشرين يوماً فقط مقابل عشرين عاماً قضاها خليل في تحرير مختصره، وقد لمح صاحبه إلى أن كتابه هذا كان فيضاً ربانياً فاض به الله على مجتهد مجد.

⁷ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيظاني خلال القرنين 18 و 19، مرجع سابق، ص. 154.

وقد رد عليه الشيخ الكنتي بأبيات شعرية تحث على التمسك بالكتاب والسنة، ونبذ ما سواههما قائلاً¹:

قبضت على دين رسولي وتلك لعمرى حجتى ودليلي
تمسكت بالأصلين أي وسنة فلم أك أصغي فيهما لعدولي

وقد كان التعارض بين أتباع الفروع والأصول وجها من أوجه الصراع السياسي والفكري بالمغرب منذ نهاية الدولة المرابطية، وبداية دولة الموحدين، حيث واصل المرابطون تمسكهم بكتب فروع المالكية، ونبذ ما سواههما بشكل أدى إلى تحجر الفقه المالكي وارتباطه بآراء فقهاء اجتمعوا حسب ظروفهم فكانت تصانيفهم محط اهتمام الدارسين، والفقهاء والقضاة الذين آثروا اعتمادها على الرجوع إلى القرآن والسنة واستنباط الأحكام منهما بالاجتهاد، وهو أمر كان قد أغاظ الموحدين، ومن بينهم الأمير عبد المومن الكومي الذي جمع فقهاء مراکش لينكر عليهم تمسكهم بكتاب المدونة، وعدم رجوعهم للقرآن الكريم والسنة النبوية، محاولاً حملهم على اعتناق المذهب الظاهري، لكن الفقهاء ردوا عليه في ذلك الأمر ومنهم الفقيه ابن زرقون²، وهو رأس فقهاء المالكية حينها معلنين استمرار تمسكهم بالفروع، ونبذ المذهب الظاهري. واستمر عدا الموحدين لكتب الفروع يتنامى إلى أن تولى أبو يوسف يعقوب المنصور حكم المغرب سنة 585هـ/1189م، فأصدر أوامره بإحراق كتب فروع المالكية سنة 591هـ في جميع أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً، بعد أن تجرد من الآيات القرآنية، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، معلناً أن هدفه من ذلك محو الخلافات الفقهية، والأقوال المتعددة المتشعبة التي عقدت بساطة المذهب المالكي.³

¹ المرجع السابق

² هو أبو الحسين محمد بن سعيد بن زرقون الأنصاري، من أهل إشبيلية، كان حافظاً للفقه مبرزاً فيه عارفاً بالكتاب والسنة من كتبه كتاب الأنوار في الجمع بين المنقذ والاستنكار والجمع بين صحيح الترمذي وسنن أبي داود توفي سنة 586هـ/1190م (ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان الجزء 2، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2018، ص. 260).

³ الحسين، عبد الهادي، مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي، ج.1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1403هـ/1983م، ص. 207.

يقول الناصري في هذا الباب: «أمر يعقوب برفض فروع الفقه وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم كما يؤدي إليه اجتهادهم، من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس»¹. لكن المدرسة الفروعية سرعان ما عادت للانبعاث من جديد مع بداية العهد الميرني حيث رجعت كتب مالك واجتهاداته وفروعه لتستأثر باهتمام العلماء والفقهاء في التدريس والفتوى، وأبقت على قوتها في الحضور إلى عصرنا الحالي.

3.1. اتجاه الجمع بين الأصول والفروع

كان من رواد هذا الاتجاه في منطقة الصحراء الشيخ محمد المامي بن البخاري الذي دعا إلى الجمع بين التيارين (الأول والثاني) متأثرا بتراث المالكية في المنطقة، ومنفتحا على كل المستجدات الفقهية التي عرفها المغرب منذ عصر الموحدين، حيث كان شغوفًا بتصنيف الفروع وأبوابها التي لم تترك شيئا إلا وتحديث فيه، لكنه كان محبطا في أحيان كثيرة من سكوت علماء عصره عن الكثير من الأمور الجديدة التي لم يُفْتَّ فيها، ومنها بعض أمور أهل البادية التي أقر أن عدم الخوض فيها كان بسبب أن كل التصنيفات الفقهية كانت حسب قوله مدنية المنشأ والمنهج، وهو يقول في هذا الإطار: «فقد شاع في علمائنا من لدن مسكة وابن محم أن جل مسائل أهل البادية الخاصة بهم غير متكلم فيه، وغير مصنف فيها ولم تجمع، فقام تفريقها في الكتب الذي صار سببا لجهلها مقام العلم... لأن التصنيف مدنية، وإنما تكلم أهلها غالبا على مسائلهم الخاصة أو على المسائل الجامعة بيننا وبينهم وسكتوا عن غالب المسائل الخاصة بالبادية»².

كما قال ناظما:

مثل الآلاء بها خص البساتين	وإن للبدو أحكاما تخصهم
عن أول سكتت عنه المدايين ³	ونجل شعبان واليوسي قد سكتا

¹ الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصاء لدول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج. 1، دار الكتاب الدار البيضاء، 1418هـ/1997م، ص. 20.

² بن البخاري، محمد المامي، كتاب البادية ونصوص أخرى، مرجع سابق، ص. 51.

³ المرجع نفسه.

ثم قال أيضا:

وأحكام باد غير أحكام حاضر
وأهل البوادي لم يولف عليهم
فيعذر ما قصرت فيها لأنني
كواضع فن عنه ذو اللب صافح

وأمام هذه الأزمة فإن الشيخ محمد المامي لم يكتف بانتقاد علماء عصره في هذا الباب بل أخذ المبادرة لدخول باب الاجتهاد بإيعاز من العلامة محنض بابا بن عبيد الديماني² الذي قال له: «أدرك الفقه فإنه خرج من الأيدي»³، مبينا أن الحل الوحيد أمام هاته الأزمة هو أن يجتهد فقهاء البادية لاستخراج أحكام شرعية لنوازلهم، خاصة وأن البلاد كانت سائبة حسب رأيه إذ لم يكن فيها أمير السياسة ولا القاضي الذي يجلب الخصم بخاتم ورسول. وقد قال عن ذلك متوجعا:

يا من لقطر به الأحكام ضائعة
يكش في كل ظل منه تنين
لبعده من مسافات بها عرفت
عدوى القضاء فما فيها مساكين⁴

وكان ثمرة توفيقه بين الاتجاهين الفكريين سأل في الذكر تأليف كتاب البادية الذي ناقش فيه رأي المدرستين بنظرة استحضرت شمولية موقفيهما، والانفتاح على أحوال عصره، التي حاول الإجابة عن بعض معضلاتها مسترشدا بأقوال كبار فقهاء المالكية وعلمائها من المغرب والأندلس ومصر.

وقد رد فيه الشيخ على فقهاء التقليد والتجديد معا بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبه أستعين على الهول الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أما غزارة فروع الفقهاء مع قطع النظر عن النظر فيما ينظر فيه من التخريج والترجيح

¹ مفردتها تلمية، وهي الأجزاء الأربعة لكتاب البادية الذي ألفه، وتضم أغلب اجتهاداته وردوده على علماء عصره، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تبدأ بكلمة "لما".

² فقيه شنقيطي، أشعري المعتقد، تجاني الطريقة، فروع الفقه، أسهم بقسط وافر في الإنتاج الفقهي لمنطقة شنقيط، توفي سنة 1277هـ/1860م

أنظر: أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2015، ص. 142.

³ بن البخاري، محمد المامي، كتاب البادية ونصوص أخرى، مرجع سابق، ص. 52.

⁴ المرجع نفسه، ص. 54.

والعرف، وغير ذلك فقصور. وأما ذم أصولي زماننا لهؤلاء الفقهاء، وطرحهم ورفض حكمهم، وجعلهم سخرية مع عدم ادعائهم للإغناء عنهم في النوازل فليس بمنصور»¹.

وقد ساهم بدور كبير، بفضل هذا المنهج، في إنتاج الكثير من الأحكام الخاصة بأهل البادية مطبقاً مبدأ "الضرورات تبيح المحظورات"، وراغباً في التيسير عليهم مخافة دخولهم في الحرام: «وعندي أنهم لو ضيق عليهم لاقتحموا النهي بلا شبهة»².

2. المدرسة الكلامية

1.2. منابع الاتجاه الكلامي في غرب الصحراء

يمكن تعريف علم الكلام بكونه المعرفة الخاصة بإدراك الإيمانيات، أي الإيمان العقلي بإثبات أصليين عقليين هما التوحيد والعدل بالنبوة والشرعية، ويتأسس على اليقين عبر النظر، والتفكير والحجة والبرهان والدليل والفهم والجدل والحجاج، وقد ظهر منذ فجر الإسلام وانتقل معه إلى الأمصار، وعرف أوجه مع حكم الخليفة المأمون. واختلف العلماء في أهميته والحاجة إليه، وقد كان الإمام الغزالي أهم من تكلم في شأنه ورأى بأن فائدته تتجلى في طلب الدليل للرد على الشبهات وحفظ عقائد العوام عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، بالنظر إلى الضعف الإدراكي للعوام لبعض الحقائق والقضايا التي يمكن أن يستفزها جدل المبتدع، لكنه من جانب ثان له ضرر يتجلى في إثارة الشبهات وتأكيد اعتقاد المبتدعة لما يتضمنه من مجادلات ومشغبة، الشيء الذي يجعل الاشتغال به واجب كفاً لحراسة العقيدة وقمع المبتدعة³.

وإذا كانت بدايات الإسلام بمنطقة الصحراء تميزت بشبه غياب للمتكلمين من أشاعرة وغيرهم، والحرب على من وجد منهم من قبل المرابطين عملاً بما ذهب إليه أئمة المذاهب من مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وجميع أهل الحديث من السلف، فإن ذلك لم يحل دون ظهور فطاحلة لهذا العلم بعد ذلك بوقت طويل استهوتهم الحكمة العقلية،

¹ ابن البخاري، محمد المامي، كتاب البادية ونصوص أخرى، المرجع السابق، ص. 132.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ الديب، أحمد إبراهيم، موقف الإمام أحمد الغزالي من علم الكلام وأدلة المتكلمين، ضمن مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الثالث، 2011، ص. 465.

وطلب المنطق والبحث عن الدليل العقلي، ومن هؤلاء الشيخ المختار بن بونا الجكني (ت. 1220 هـ).

وقد شكلت المدرسة السنوسية¹ بداية للدراسات الكلامية في شنقيط بلونها الأشعري، وقد ركزت على الاهتمام بعلم التوحيد الذي يورث من أخذ به معرفة الله ومراقبته، وقد أفنى السنوسي عمره ساعيا إلى تصفيته من الشوائب والرد على المنحرفين ومن أهم تأليفاته²:

- العقيدة الكبرى

- العقيدة الوسطى وهي أقصر من سابقتها

- أم البراهين وتعرف بالعقيدة السنوسية الصغرى.

وقد دعا السنوسي إلى نبذ التقليد في العقائد، لأن الاقتصار على النطق بالكلمات من غير تحقيق لمعناها ولا معرفة لدلولها لا يكفي في حصول الإيمان وحقيقته.

ويستشهد على نظرية إعمال العقل بالقول: «أن الصحابة وهم ذوو مناعة ضد التلوث بأدران البدع والانحرافات قد ضمنوا حرزا مأمونا ليس مضمونا في زمان السنوسي الذي كثرت فيه البدع وخيف فيه على الضعيف من المروق والانحراف»³.

كما حذر من التقليد لأن إيمان صاحبه في خطر قائلا:

وفي المقلد خلاف مستطر لأنه إيمانه على خطر⁴

يعتبر الشيخ ابن بون سالف الذكر تلميذ السنوسي بامتياز، وقد اعتمد على مؤلفاته في نظم ما يربو عن ألف ومائتي بيت شعري حوَّنها رسالته المعنونة بـ: وسيلة السعادة في نشر ما تضمنته الشهادة.

¹ راندها هو محمد بن يوسف عالم تلمسان ومتكلمها، تلقى تعليمه على يد ثلة من علمائها في القرن 9 هـ/15 م (أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، ص. 113)

² ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص. 114-115.

³ المرجع نفسه، ص. 116.

⁴ المرجع نفسه، ص. 117.

وقد أشار ابن بون إلى ذلك في بداية نظمه:

نظما حوى عقائد الشريف محمد السنوسي الظريف
لخصت فيه ما حوته الصغرى مع ضمن وسطاه وضمن الكبير¹

2.2. منهجها في التعامل مع الأصول الشرعية

كان المختار بن بونا الجكني أول من وضع أسس هاته المدرسة بأرض البيضان، ونشر مبادئها عن طريق التعليم المحضري الذي طور منهاجه الدراسي ليشمل علم الكلام والنحو²، فقد وجد الناس لا يتجاوزون ما في الألفية وشروحها، حتى نظم لهم ما تخلف عن الألفية مما تضمنه التسهيل، وألصق كل شذرة بما يناسبها وضم إلى ذلك طرته المفيدة وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب³.

وقد كان هذا الشيخ أول من وضع مقرا دراسيا لعلم البلاغة سماه تبصرة الأذهان، وسار على نهجه عدد من علماء المحاضر البيطانية في اعتماد المنطق وأصول الفقه وعلم الكلام في النظر إلى الشريعة الإسلامية، لاستنباط الأحكام الخفية ومقاصدها، وعدم الاقتصار على ظاهر النصوص. وكثيرا ما برر متكلمو الصحراء ولوجهم لعلم الكلام -أمام خصومهم كثيري العدد -بالبحث عن الدليل عن حدوث العالم، ووحدانية الخالق وصفاته وكشف الحقائق ومعرفتها على ماهي عليه وعمارة القلب بنور اليقين، وفي هذا الأمر قال بن بونا الجكني:

قلت أرى الأقوال ذي المخالفة محلها ما صنف الفلاسفة
أما الذي صنفه من أسلما لابد أن يعرف عند العلماء
لأنه يصحح به العقائد ويدرك به الفوائد⁴

¹ المرجع السابق، ص. 115.

² حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيطاني خلال القرنين 18 و19، ص. 156.

³ بن الأمين، أحمد الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، بعناية فؤاد السيد، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء، 1378هـ/1958م، ص. 277.

⁴ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيطاني خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص. 156.

وقد تجاوز مألوف علماء عصره المقتصرين على دراسة العلوم الشرعية، والارتباط
بغيرها من العلوم، والانفتاح على علوم جديدة كالفلسفة وعلم المنطق. وإذا كان لهاته
المدرسة الدور الكبير في مساندة الاتجاه المقاصدي في الشريعة على مستوى العقائد،
والتمكين له من خلال الحديث حول أسباب النزول والنقاش حول الناسخ والمنسوخ وغيرها،
فإنها على المستوى الفقهي اعتمدت على النقل المالكية المفصلة في المسائل الفقهية، عوض
الاستنباط المباشر للأحكام من النصوص القرآنية أو الحديثية، وخاصة بالاعتماد على
المتون الفقهية المنظومة، مقتدية بقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾¹

وقد ذهب ابن بون إلى أن الأشاعرة لم يحدثوا إلا مصطلحات وألقاب صنعوها
لضبط قضايا العلم لأهل زمانهم تخفيفاً لمؤونة التعليم والتعلم، وهو أمر حدث في سائر
العلوم، وقد اعتبروا أن العقائد لا تعرف بالمصطلحات التي لا تعدو أن تكون مجرد وسيلة
حاملة للحق العقدي الذي لا يهم بأي وسيلة يدرك². كما أن استحداث المناهج الجديدة في
الاستدلال والانفتاح فيها على المنطق اليوناني راجع بالضرورة إلى مستحدثات المنكرين وأهل
الشبه في الأزمنة المتأخرة³.

وقد أدخل الأشاعرة المغاربة، ومهم السنوسي، ومن بعده ابن بون الجكني جميع
مسائل العقيدة في نطاق الجدل مع اشتداد معارضة الخصوم، فالحجة حسبهم تفرع
بالحجة على أساس العقل والمنطق، وبذلك تم اعتماد القضايا المنطقية والبراهين الفلسفية
في النقاش حول أمور الدين، وهو أمر أغضب كثيراً أنصار التيار الأصولي السلفي.

وقد أسس ابن بون منهجه في استنباط العقيدة على مبدأ التكامل بين العقل
والنقل وتقديم العقل عند التعارض، على اعتبار أن العقل والنقل وسيلتان للوصول إلى
الحقيقة، فيقول:

¹ سورة الأنبياء الآية 7.
² ولد السعد أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص. 190.
³ بن يوسف، محمد السنوسي، العقيدة الوسطى وشرحها، تحقيق السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دبت، ص. 51.

وما يُبرهان من المقاصد
يُنَى إلى العقل مع الفوائد
يُنَى أو بالنقل، فالمسائل
وبعضها لبعضها وسائل¹

وقد بين في هذا أن الوصول إلى الاستنباط الفعال يقتضي التكامل بين وسائل البرهنة العقلية والنقلية، على أن مضمون الشرع المتصل كلما خالف العقل يصبح مردوداً قطعاً لأن الشرع لا يخالف العقل حسبهم.²

وإلى جانب الشيخ المختار بن بونا ظهر رائد آخر لهذه المدرسة يسعى عبد الله بن الفاضل،³ وقد سار على منهج أستاذه المختار في الرد على مخالفه.

3.2. السجال الفكري مع الخصوم

كان خطاب هاته المدرسة مثار معارضة شديدة من بعض علماء البيضان خاصة بسبب اعتماد الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة، لأنها وثنية المنشأ والمنطلق حتى وإن أدى برهانها إلى إثبات وجود الله حسبهم.⁴

وقد كان من جملة هؤلاء المعارضين العالم المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي⁵ الذي كانت علاقته جد متردية مع شيخه المختار بن بون وزميله عبد الله بن الفاضل، ومن صور المساجلات الحادة بين المجيدري وعبد الله بن الفاضل أنه عندما كان يستعصي على هذا الأخير الرد الفوري على المجيدري، كان يقول له أمهلني ساعة فيرد عليه المجيدري بكل عجرفة أمهلتك عمرك.⁶

¹ ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص. 198.

² المرجع نفسه، ص. 200.

³ عبد الله بن الفاضل تلميذ ابن بون الجكني درس على يديه، تمكن من التمرس بالجدل والمناظرة، ينحدر من قبيلة أهل براك الله توفي سنة 1209هـ/1794م (ترجمة جمعت من عدة مصادر).

⁴ بن يوسف، محمد السنوسي، العقيدة الوسطى وشرحها، مرجع سابق، ص. 5.

⁵ هو كمال الدين بن حبيب الله ابن الفاضل بن أشفغ موسى، من أهم رواد الفكر السلفي في بلاد شنقيط، لا يعرف تاريخ ولادته لقبه سلطان المغرب محمد بن عبد الله بالمجيدري لظهور أثر مرض الجدري على وجهه، توفي سنة 1204هـ/1789م بمنطقة بنز إيكين. (الموسوي، يعقوب، خير الموسويين المتأيد بتركيات القاضي موسى بن احميد، مطبعة المنار، ط. 1، لكصر، موريتانيا، 2013، ص. 671).

⁶ ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، ص. 137.

وفي مقام آخر يشتكي عبد الله من عجزه عن مواجهة المجيدري فيستسلم مخاطبا المجيدري: «أبلغني ربي»، فيعقب المجيدري: «بل أبلغتك دجلة والفرات»¹. ومنهم كذلك المأمون بن محمد الصوفي² الذي وجه نقدا لاذعا للمختار بن بونا الجكني قال فيه:

ما الدين إلا الذي تسعى لتوهنه أي النبي وآثار الهدى العتق
لا كل خبط من اليونان³ مبتدع قد سن بين أصول الدين مختلق⁴

كما أن الفقيه الشيخ محمد بن حبيب الله المجيدري اليعقوبي لم يتوانى هو الآخر في شن حرب على ابن بون شيخه السابق وكان حينها أعظم تلامذته، حيث رماه بالضلال والبدعة، ووقعت بينهما وحشة شديدة كما قال أحمد بن الأمين الشنقيطي⁵، وقد مات المجيدري في حياة ابن بون، فقال في وفاته قصيدة بدأها بهذا البيت:

أودي الضلال ألا فليفرح الجدلا من عاش مضل شاقق الرسلا.
فنقضها مولود⁶ بقصيدة مطلعها:

أودي الكمال ألا فليفرح الجدلا من لا يموت ومن لا ينقضي أجلا؟⁷
ونفس الأمر قام به الشيخ حبيب بن الأمين بن الحاج الشقروي أحد علماء الحديث في المنطقة، الذي جاء بأمور تخالف مذهب الفقهاء، فرد عليه محنض بابيه أحد تلاميذ ابن بون وألف في تضليله المؤلفات، وقد كان ابن الأمين هذا تخافه الناس لكثرة علمه وسلطة لسانه لكن محنض باب لم يبال بذلك.⁸

¹ المرجع نفسه، ص. ن

² هو أحمد المأمون بن محمد الصوفي (1140هـ/1235)، عالم ومحدث وشاعر كان أحد علماء القرآن والحديث بشفقيت كما كان من أهم رواد المدرسة السلفية النصبية. (ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شفقيت، خلال القرن 13، ص. 151)

³ كلمة يونان هنا استعملها الشاعر للدلالة على انفتاح أصحاب المدرسة الكلامية على التراث العقلي للفلسفة اليونانية المترجم أثناء الفترة العباسية والمنقول في كتب الفكر الإسلامي.

⁴ حنيدى، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيطاني خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص. 215.

⁵ الشنقيطي، أحمد ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شفقيت، مرجع سابق، ص. 215.

⁶ هو مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي الذي يعرف بالجويد، كان من تلاميذ ابن بون إلا أنه تحول إلى الذخوم، ينتمي إلى قبيلة إد يغب، كان شاعرا ولغويا ألف العديد من القصائد في المدح والدفاع عن منهج أهل السنة والرد على مذهب الفقهاء.

⁷ الشنقيطي، أحمد ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شفقيت، مرجع سابق، ص. 215.

⁸ المرجع نفسه، ص. 236.

وقد استند هؤلاء المعارضون إضافة إلى انتمائهم لهذا التيار السلفي إلى تراث فقهي مرابطي قديم عارض الأشعرية لحظة دخولها المغرب، وفي هذا الإطار يقول صاحب المعجب: «...ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه لهذه الأقوال»¹.

وخاض فقهاؤه حرباً مع الموحدين حتى أقول دولتهم. وتمكنوا من العودة مجدداً إلى مسرح الأحداث مع الدولة المرينية التي أرجعت كل تراث المالكية المغيّب في العهد الموحد، وبنّت له المدارس لنشره وغرسه في وجدان المغاربة من جديد.

وقد كان علماء العقيدة في الصحراء في غالبيتهم أقل انفتاحاً على الفكر الأشعري متأثرين بمنهج أهل السلف الذين يأخذون النصوص على ظواهرها، على نحو ما قرره الإمام مالك بن أنس.

أدت هاته المساجلات بين السلفيين والفقهاء المتكلمين إلى حدوث أثر عميق على الساحة الفكرية بأرض البيضان، جعلها تعج بأراء مختلفة لتفسير الشريعة، وطرق إعمال العقل والنقل في النهل من مصادر التشريع الإسلامي من قرآن وسنة.

¹ المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تاريخ المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط.1، 2006/1426، ص. 131.

3. المدرسة السلفية

3.1. الأصول الفكرية للاتجاه السلفي في منطقة الغرب الصحراوي

ترجع أصول هاته المدرسة إلى الحركة الوهابية التي انتشرت في المشرق العربي منذ القرن الثامن عشر، وقد وصلت إلى بلاد البيضان بسبب الرحلات الحجية التي استثمرتها لنشر أفكارها وقراءتها للدين الإسلامي، حيث كان شيوخها يتحدثون إلى حجاج كل الأمصار خاصة حجاج الأماكن البعيدة ومنها بلاد شنقيط، وقد شكل وصول أفكار هذا التيار لهاته التخوم الصحراوية البعيدة مظهرا عميقا من مظاهر الوحدة بين أقطار العالم العربي والإسلامي، وكان أول من تأثر بها الشيخ محمد بن حبيب الله المجيدري الذي شن بعد عودته من رحلته الحجية حربا على الذين بالغوا في تأويل النصوص الشرعية داعيا إلى العودة بالدين إلى صفائه الأول، واعتمد أصحاب هاته المدرسة على منهجية الأخذ بظاهر النصوص، ونبد الغوص في معانيها العميقة، ومقاومة البدع المستحدثة التي لا توافق أصول العقيدة، وعدم التقيد بمذهب بعينه ونبد التقليد ومعارضة كل أنواع التصوف. وقد دعوا إلى الاستنباط المباشر من الكتاب والسنة ورفض التقليد.

وإذا ما وضعنا جانبا سلفية المجيدري يمكن القول إن المجال البيضاني كما قال ولد السالم لم يعرف روجا للأفكار السلفية الإصلاحية بشكل عميق إلا مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وخاصة على يد العالم الشيخ سيديا، حيث دعا إلى إقامة السنة وإماتة البدعة ولزوم فاتحة الكتاب للمأموم، ومحاربة كل أنواع الشعوذة وما ارتبط بها من بدع بهدف الحفاظ على التعاليم الإسلامية لمواجهة المد الإستعماري الذي بات على مشارف المنطقة خلال القرن 19.¹

وقد لعب المجيدري دورا كبير في انتشار أفكار هذا التيار وتحوله إلى مدرسية فقهية وفكرية اصطف إلى جانبها تيار من الفقهاء والمتعلمين الذين روجوا لأفكارها، وخاضوا المعارك الكلامية من أجلها، كما راكم شيخها تجربة فكرية قوية نهلت من التصوف المغربي الفاسي أولا قبل التأثر بالوهابية، فقد كان تلميذا لسيدي محمد بن عبد الوهاب التازي

¹ ولد السالم، حماد الله، حوار المركز والأطراف في الثقافة العربية، بلاد شنقيط في الذاكرة العربية العالمية أنموذجا، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، ط. 1، الشارقة، 2004، ص. 231.

بفاس¹ الذي كان شيخاً متوارياً خامل الذكر لم يعرف مقامه الكثير من الناس، وكان المجيدري يتردد عليه بفاس مرات عديدة، وكان سبب معرفة العامة بعلاقة التلمذة تلك أن سيدي أحمد السجلماسي مؤسس الطريقة الإدريسية الذي كان أحد تلامذة المجيدري طلب منه مرافقته إلى الصحراء ليساعده على إتمام بعض كتبه فقال له لمجيدري: «اصبر حتى استأذن لك شيخاً»، فقال له هل لك من شيخ؟ فقال له: «نعم هو سيدي عبد الوهاب التازي، فبقي قليلاً ثم أجابه بأنه لم يأذن له، ثم أخذ عنه السجلماسي طريقته تلك المتصفة بالحياء»².

هناك معلومات أخرى تزيدنا تأكيداً بأن وهابية المجيدري لم تكن صافية صفاء المنشأ بل فيها مع خصوصيات بلاد المغرب المتميز بهيمنة التصوف، وتعدد مدارسه ومنها أنه أخذ ورد الطريقة الشاذلية الناصرية والخضرية بالمغرب عن شيخه محمود بن الخطاط³. إذ أنه رغم معاداته المعلنة للتصوف ومحاربة البدع وتوجيه سهامه لرموزه باعتبارهم جاهلين وكفاراً ومبتدعين، إلا أنه كان يضم صوفية كما يبدو. كما ثبت أنه أخذ في طريق عودته للمغرب الطريقة الشاذلية الخضرية⁴ وهو بهذا قد ساهم بدرجة كبيرة في تقريب الهوة بين المتصوف والفقيه بالإشارة إلى وحدة مشاربهما الفقهية والثقافية بالرغم من كونه سعى إلى مناهضة التصوف الشعبي وتحريم زيارة الأولياء والأضرحة، التي كانت ولا تزال سلوكاً تعبدياً لدى الكثير من الحركات الصوفية.

وقد كانت مبادئ وهابية المجيدري وتلامذته تتلخص فيما يلي:

- تطهير الإسلام من البدع وإرجاعه إلى مناهله الأولى عبر العودة للأصول وتشجيع الاجتهاد واعتبار الإسلام هوية مشتركة وموحدة بين المسلمين،
- العودة للأصول ونبد الفروع والتمسك بالنص ومعاداة علم الكلام والمنطق اليوناني،
- رفض التمدد،

¹ بن موسى، يعقوب الموسوي، خبر الموسويين المتأيد بتزكيات القاضي محمد موسى بن حميد، مرجع سابق، ص. 672.

² المرجع نفسه، ص. 672-673.

³ ولد السالم، حماد الله، حوار المركز والأطراف في الثقافة العربية، بلاد شنقيط في الذاكرة العربية العالمية أنموذجاً، مرجع سابق، ص. 213.

⁴ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، مرجع سابق، ص. 197.

- التوفيق بين العلم والدين وإصلاح التعليم الديني،
- الدفاع عن الدين الإسلامي ضد التيارات الغربية، وتقوية الأمة أمام الأطماع الاستعمارية.

2.3. السجال الفكري مع المتصوفة

أثار خطاب المدرسة السلفية في منطقة الغرب الصحراوي معارضة أقطاب الفكر الصوفي، وكان من أولهم الشيخ المختار الكنتي (1226هـ/1811م) الذي اعتبر منهجها خطرا على الحجاج المسلمين، ودعا إلى إعادة النظر في تنظيم الرحلة الحجية في تلك الظرفية بسبب استيلاء عرب الحجاز ونجد على الحرمين، فقال: «فأقل ما يخاف على الحاج تحت ولايتهم الافتتان في دينه أو التغير بنفسه»¹. كما قال أيضا منتقدا موقف المجيدري من التمثذهب والطعن في إمام الهجرة: «وقد بلغني أن ابن حبيب الله طعن في مالك بن أنس إمام الأئمة وعالم دار الهجرة»².

ويختزن هذا الموقف للشيخ الكنتي حنقا كبيرا على الوهابيين الذين يكفرون الأولياء والصالحين حسب ما قاله. وقد استمرت العائلة الكنتية في معارضة المد الوهابي في المنطقة على يد وريث تلك الطريقة محمد الخليفة الكنتي (1242هـ/1826م)، الذي نظم قصيدة في مدح حاكم مصر محمد علي ضمنها في رسالته له تقديرا لما قام به من تحجيم للمد الوهابي في مصر والشام آنذاك.³

وقد سار الكثير من متصوفة المنطقة على خطى رواد المدرسة الكنتية في معارضة الفكر الوهابي الذي ضرب العديد من القنوات الفكرية والسياسية لديهم، وهدد مصالحهم ومنهم الفاضل بن بارك الله الذي ألف كراسة في الرد على المجيدري، دمجها بعنوان: «السامع السلي في الرد على المشاqq البدي»⁴.

¹ ولد السالم، حماد الله، حوار المركز والأطراف في الثقافة العربية، بلاد شنقيط في الذاكرة العربية العالمية أنموذجا، مرجع سابق، ص. 223-224.

² الكنتي، المختار، جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأبرار مخطوط ورد ضمن كتاب مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية الموريتانية لمحمد محفوظ بن أحمد، المكتب العربي للخدمات الثقافية نواكشوط، ط. 1، 1996، ص. 113.

³ ولد السالم، حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز الدراسات العربية، الطبعة 1، بيروت، لبنان، 2003، ص. 223-224.

⁴ بوزنكاض، محمد، التواصل بين بلاد البيضان والمشرق العربي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ص. 168.

وقد رد فيها على المجيدري ومنهجه الأصولي بالدليل من الكتاب والسنة مؤكداً على أولوية العقل على النقل ومدافعا عن الأولياء والصالحين، بشكل عكس علو كعبه في الفتوى.¹

وبالرغم مما واجهه هذا الفكر من معارضة شديدة إلا أنه شكل نقطة بداية لإشعاع الحركة الفكرية بالمنطقة ومظهراً من مظاهر التنوع في مشهدها الثقافي الذي أفرز جدلاً فقهيًا وعقائدياً في أوساط الفقهاء بين اتجاه أشعري عقلي متجذر في المنطقة منذ الفتوحات الإسلامية، واتجاه نصاني نقلي، كسر الجمود الفكري الذي ظلت تعيشه منطقة البيضان، الذي جسده الوحدة الفكرية التي كانت تمثلها المدرسة الأشعرية.

وقد تعرض التيار السلفي إلى إلغاء فكري من قبل الأشعرية والفروع المملوكية باعتباره مخالفاً لنهجهما العقدي والفقي، فتم منع أي اجتهاد خارج نطاق المتون التي حلت كما يرى المجيدري وأصحابه محل القرآن والسنة، واستمرت الفروع المرجع الأسى في القضاء والفتوى والأحكام.

4. المدرسة الصوفية

عرفت بلاد البيضان إلى جانب المدارس الفكرية والدينية السابقة وجود تيار فكري وروحي باطني هو تيار التصوف الذي انخرط أتباعه في أوراد طرقية شاذلية وقادرية وتجانية، وأضافوا لها ممارسة طقوسية خصوصية مستمدة من بلاد شنقيط وسمتها بطابع البداوة والبساطة، بالإضافة إلى أوراد خاصة كانت محط إنكار من قبل الفقهاء الشناقطة الأشعريين والسلفيين، واعتبروها بدعة في الدين توجب المقاومة، فقد تصدى الفقهاء الأشاعرة في بداية مواجهتهم للفكر الصوفي لحركة ناصر الدين بالجنوب أو ما يسمى في بلاد شنقيط بالقبلة، وأفتوا بعدم مساندته في حركته ضد قبائل حسان، لأنهم مسلمون موحدون، كما أنكروا عليه ادعاءاته الصوفية، وكان من هؤلاء الفقيه عبد الله البوحسيني الذي عمل إلى

¹ المرجع السابق، ص. ن.

جانب ابن الأعمش العلوي على ترسيخ مباحث العقيدة وعلم الكلام في الثقافة المحضرية في النصف الثاني من القرن 11هـ/17م¹.

وقد انبنت منهجية الطرح الصوفي في بلاد شنقيط والصحراء على ازدياد مناهج الفقهاء من قواعد عامة وضوابط موضوعية، واعتبروها مقيدة لمجالات الإدراك الإنساني، وتضييقاً لرحابة أفكاره²، وقد اعتبرت أفكاره هاته المدرسة خروجاً عن المألوف، وتمرداً على ثقافة الفقهاء البيضان بسبب ما جاءت به من تأملات لواقع الكون والحياة.

وينظر أهل التصوف إلى أن علاقة علومهم ومناهجها بعلوم الشرع الظاهر نظرة تكامل وانسجام، ويعتبرون أن ثمة اتساقاً بين الحقائق البارزة في الشريعة والدقائق الكامنة في الحقيقة، وهو ما يعبرون عنه بالتصوف³. كما يرون أن الإيمان بالعقيدة القائم على النظر العقلي والاستدلال المنطقي إيمان جاف، وأن الإيمان الصائب الصحيح هو إيمان العارفين بالله المتصوفة⁴.

وقد أورد هؤلاء المتصوفة مثالا على ادعائهم من سورة الكهف⁵، حيث كان موسى صاحب الشريعة والخضر صاحب الحقيقة، وأسسوا على ذلك مقارنة بين إنكار موسى على الخضر، وإنكار علماء الظاهر عموماً على أهل الحقيقة، وذهبوا إلى أن المنشأ في الإنكار واحد هو عدم الاطلاع على السر القائم وراء منهج أهل الحقيقة وتصرفاتهم، فتبدو في ظاهرها

¹ ولد محمد سالم، عبد الله، الشعر الشنقيطي من القرن 12هـ إلى القرن 13هـ، المرجع والبنية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال، الرباط، 2000-2001، ص. ص. 72-73.

² ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص. 300.

³ المرجع نفسه، ص. 301.

⁴ النعمة، محمد الغيث، ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية، تحقيق المداح محمد المختار، رسالة لنيل دبلوم الدراسات في اللغة العربية وآدابها، ج. 1، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1414-1415/1994-1995، ص. 28.

⁵ سورة الكهف الآيات: 60-80.

مخالفة للشريعة¹ وضرباً من البدعة، ومن ذلك ما قاله المختار بن بونا في حق الشيخ المختار الكنتي.²

وقد عارض الفقهاء الأشاعرة نظرية الولاية التي أتى بها الكثير من هؤلاء المتصوفة، واعتبروها مروقاً عن الشريعة، ودخلوا معهم في مساجلات كلامية عارضوا من خلالها فكرة الغلو في الدين والغوص في الباطن التي نهجها المتصوفة، ونظم الطرفان الكثير من الأبيات التي لخصت نظرة كل تيار منهما للدين والعبادة والشريعة، وقد بدأ السجال بين أعمدة التيارين الفكريين المختار بن بون الجكني والشيخ سيدي المختار الكنتي حيث عارض الأول الثاني وطعن في ولايته، ووصفه بالمروق عن الشريعة واتباع البدع بقوله³:

لئن تكن استظهرتم أن جعلتموا أمورا علينا في الشريعة لم تكن
فلا تنكروا أن كانت الكتب عنكم سرائر عن حالة البحث لم تكن

وكان لهذا الفعل الذي صدر عن المختار بن بونا الجكني، أن كفره سيدي المختار الكنتي لطعنه في أولياء الله الصالحين،⁴ لأن هؤلاء حسبه أثني عليهم الله في كتابه قائلاً:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁵

وسار على هذا النهج أيضاً الفقيه أحمد بن حنبل الحسني⁶ الذي نظم أبياتاً يسأل فيها أهل الباطن عن دور الأوراد وانشغال الناس بها عن العلم الشرعي حيث قال:

¹ ولد السعد، أحمد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص. 301.

² هو الشيخ سيدي المختار ابن أحمد ابن أبي بكر الكنتي (1142هـ/1730م - 1226هـ/1811م)، من أبرز علماء بلاد الصحراء وشنقيط، نشر الطريقة القادرية الكنتية في بلاد البيضان والسودان الغربي (النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص. 517).

³ بن الأمين، أحمد الشنقيطي، الوسيط في تراجم، أدباء شنقيط، مرجع سابق، ص. 282.

⁴ ولد محمد سالم، عبد الله، الشعر الشنقيطي من القرن 12هـ إلى القرن 13هـ، المرجع والبنية، مرجع سابق، ص. 78.

⁵ سورة يونس، الآية 62.

⁶ هو الشيخ محمد بن حنبل بن الفك الحسني من قبيلة إيداب لحسن ولد سنة 1239هـ/1824م، في بلاد الترارزة أخذ الطريقة القادرية عن الشيخ سيديا وكان من أبرز تلاميذته ومادحيه، ومدح الأمير محمد لحبيب، ومن مؤلفاته: "رأي الضمان في تفسير القرآن" و"تنبيه المغفور على ضروريات الأمور" (حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيظاني خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص. 164).

يا خائضين بحور العلم مسألة عنها أجيبوا بأفهام زكيات¹

فأجابه الشيخ عبد الله بن مختارنا الحاجي (ت 1330هـ) بقوله:

الورد يا خل ذكر والدوام على ذكر المهيم من أسى المزيات²

وقد أجابه الشيخ ماء العينين بقوله³:

فالبعد بالعلم للذي نفسه طهرت أولى وذاك كأدراع حصينات

ومن تكن نفسه في الانهماك عصت فالبدء أولى بأوارد سنيات

وقد نظم الشيخ محمد يحيى الولاتي مدافعا عن مكانة هاته الفئة ما نصه⁴:

خل المشايخ قد دعاك زمانهم إياك فاحذر باهم أن تطرقه

واعكف على طلب العلوم محررا من ماجد كشف الغوامض أرقهه.

وقد أبدى المتصوفة جراحة اتجاه فكرة التجديد والاجتهاد، وكانوا أكثر حماسا في ذلك من الكثير من معاصريهم من الفقهاء، خاصة خلال القرن 13هـ/18م، وقد كان الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير أول من ناقش مسألة الشيخ المجدد في عدد من مؤلفاته وخص نفسه بهذه المرتبة، مستشهدا بالحديث القائل: ﴿بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها﴾⁵.

وقد تميزت هذه المدرسة بالتوسع في العلوم الشرعية والعقلية والباطنية، وأسهمت في نشر المعارف الإسلامية وأسست لذلك المحاضر والمدارس التي شكلت قناة لنقل تعاليمها، ونذكر منها مدرسة الشيخ سيدي المختار الكنتي ومحمد فال بن متالي التندغي، ومحاضرة الشيخ ماء العينين وزاويته في السمارة وبلاد سوس في تزنييت، وتمحورت أراؤها حول تصحيح

¹ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيطاني خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص. 164.

² المرجع نفسه، ص. ن.

³ المرجع نفسه، ص. 165.

⁴ المرجع نفسه، ص. ن.

⁵ ولد السالم، حماد الله، حوار المركز والأطراف، مرجع سابق، ص. 229.

بعض اعتقادات الأشاعرة بشأن التصوف باعتباره تيارا توفيقيا هدفه الإصلاح وتقويم الآراء وتصحيح المعتقدات أكثر منه تيارا متعصبا لمرجعية معينة.¹

خاتمة

كان لهذه الاتجاهات الفكرية والفقهية والروحية دور كبير في انتعاش الحياة الثقافية والدينية في أرض البيضان بأن أوجدت للمجتمع إجابات فقهية متنوعة عن مختلف انشغالات الناس وتأطير معيشتهم البدوي اليومي في ارتباط تام بطبيعة كل اتجاه فكري ومنهجه في الفتوى والاجتهاد والتعليم، كما وجدت لها أتباعا من داخل المجال البيضاني، سواء في بلاد شنقيط، أو في الصحراء المغربية، ومجال شمال مالي وغرب الجزائر اشتغلوا على نشر أفكارها في أوساط المجتمع، واتبعوا مناهجها وطرق استدلالها في تحقيق إيمانهم، وقد كانت المحاضر التعليمية البدوية المتنقلة وسيلتهم الفضلى في تحقيق ذلك، نظير ما تميزت به من فرادة في تدريس الطلبة بمختلف العلوم والمعارف الإسلامية، مثل القرآن والحديث والعقيدة والفقه والسيرة والتاريخ والأنساب، إلى جانب الأدب والشعر واللغة والصرف والعروض والبلاغة، وعلوم دنيوية أخرى كأسرار الحروف والحساب والهندسة والجغرافيا والفلك والطب، وغيرها من الحقول العلمية. على أن حضور هذه التخصصات في المنهاج الدراسي البيضاني قد اختلف من محاضرة إلى أخرى ارتباطا بمدرستها الفكرية واتجاهها الطريقي الصوفي، وقد تفرق خريجو هذه المدارس المحضرية في البوادي البيضانية من شنقيط جنوبا إلى وادنون شمالا، وتمبوكتو شرقا يدرسون الأطفال ويشغلون بالقضاء والفتوى، الشيء الذي ساعد على محو الجهل، والدفاع عن الشريعة عن علم، كما وفرت إنتاجاتها العلمية والأدبية والدينية رصيда فكريا وفقهيا متنوعا ساعد الفقهاء والقضاة وباقي المشتغلين في الشأن الديني والقضائي في التحكيم بين الناس والإجابة عن نوازلهم المختلفة، وتنظيم مختلف أوجه حياتهم الاجتماعية.

¹ حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيضاني خلال القرنين 18 و19، ص. 167.

البيبليوغرافيا

- ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان الجزء 2، دار الكتب العلمية بيروت. لبنان، 2018.
- الكنتي، المختار، جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأبرار مخطوط ورد ضمن كتاب مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية الموريتانية لمحمد محفوظ بن أحمد، المكتب العربي للخدمات الثقافية نواكشوط، ط. 1، 1996.
- الموسوي، يعقوب، خبر الموسويين المتأيد بتزكيات القاضي موسى بن احميد، مطبعة المنار، ط. 1، لكصر، موريتانيا، 2013.
- النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية /المحاضر، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.
- بن أحمد، محمد محفوظ، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحضرية الموريتانية، المكتب العربي للخدمات الثقافية، ط. 1، نواكشوط، 1406 هـ / 1996 م.
- حديدي، الحسين، الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيظاني خلال القرنين 18 و19، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2015.
- ولد حمين، أحمود، التجديد أو النظر الفقهي عند علماء الصحراء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2003.
- الديبو، أحمد إبراهيم، موقف الغزالي من علم الكلام وأدلة المتكلمين، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الثالث، 2011.
- الحسيسن، عبد الهادي، مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحد، ج. 1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1403 هـ / 1983 م.
- الشنقيطي، أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، بعناية فؤاد السيد، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء، 1378 هـ / 1958.
- الظريف، محمد، الحركة الصوفية، وأثرها في أدب الصحراء المغربية 1800- 1956، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002.
- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تاريخ المغرب، شرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط. 1، 1426 / 2006.
- الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصاء لدول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق الأساتذة جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج. 1، دار الكتاب الدار البيضاء 1418 هـ / 1997 م.

- النعمة، محمد الغيث، ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية، تحقيق المداح محمد المختار، رسالة لنيل دبلوم الدراسات في اللغة العربية وآدابها، ج. 1، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، 1414-1415/ 1994-1995.
- بن البخاري، محمد المامي، كتاب البادية ونصوص أخرى، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، جامعة محمد الخامس أكادال، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.
- بوزنكاض، محمد، التواصل بين بلاد البيضان والمشرق العربي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2014.
- ولد السالم، حماد الله، حوار المركز والأطراف في الثقافة العربية، بلاد شنقيط في الذاكرة العربية العالمية أنموذجا، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، ط. 1، الشارقة الإمارات العربية المتحدة، 2004.
- ولد السالم، حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز الدراسات العربية، الطبعة 1، بيروت، لبنان، 2003.
- ولد محمد سالم، عبد الله، الشعر الشنقيطي من القرن 12هـ إلى القرن 13هـ، المرجع والبنية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، في الأدب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال، الرباط، السنة الجامعية: 2000-2001.